٢) اللغة العربية

فكرة خاطئة استولت على لب بعض شبابنا المثقفين فحجبت اعينهم وسدت آذانهم فصاروا لا يبصرون الا ما تشاء ولا يسمعون الا ما تمليه عليهم ، وهي تهوى بهم في درك من الضلال ، وتسوقهم من حيث لا يشعرون الى الفناء والاضمحلال ، تلك هي ظاهرة احتقار اللغة العربية وعدها من اللغات الميتة التى لا يرجى لها بعث ولا إحياء ! فهي في نظرهم غير صالحة للاستعمال في القرن العشرين ـ قرن الحضارة والعلوم والمخترعات ـ اذ لا تفي بكل ما تتطلبه المدنية من الالفاظ للدلالة على المعاني المبتكرة ، والافصاح عما يعتري النفس من الهواجس والخواطر ، فاذا جمعك وأياهم مجلس فلا تنتظر منهم أن يحدثوك عن آداب اجدادهم الكرام ، أو يؤانسوك بذكر شيء ـ ولو قليلا ـ يتعلق بالعربية : تلك لغة بدوية لا يليق بأمثالهم ان يهتموا بها ، فهم يغترفون من مناهل صافية نقية ، ويتلقون العلوم من اربابها : لا تروعهم الا مآسي شكسبير ، ولا تعجبهم الا افكار ديكارت ، ولا يطربون الا على نغمات قيثارة الفريد دُموسي أو لامرتين ، أما اللغة العربية وآدابها فتلك سفاسف وخرافات ليست جديرة بالاهتمام .

ولو تأمل هؤلاء المفتونون لرأوا انه لو كانت اللغة العربية كما يصفون ـ وأنا انزهها عن ذلك ـ لكان أول واجب عليهم ان يدافعوا عنها ويسعون لاصلاحها ، فكيف يبررون اقوالهم حين يعلمون ان لغتنا الشريفة من أرقى لغات العالم أجمع ، وأنها بقيت طيلة اربعة عشر قرناً ، لا تؤثر فيها احداث الدهر ، تقوم دول وتدول ، وتنحطّ شعوب وتترقى اخرى ، وهي متبوئة المكان الارفع تجمع تحت لوائها كل الامم الاسلامية ، وحتى الآن يمكن لكل فرد درس اللغة العربية ولو قليلا ان يقرأ ويفهم ما كتبه اجداده منذ اربعة عشر قرناً ! انها ـ والله ـ لمعجزة ! لا يتأتى لكل لغة ان تفتخر بها !

ولعل القارئ يتصور قيمة الثروة التي اكتسبتها لغتنا في هذه المدة المديدة . فكم من كاتب بليغ طرق المواضيع المختلفة في كل العلوم والفنون ، وكم من شاعر مجيد غرّد على افنان الجمال ، وكم من فيلسوف مجادل ناضل عن مذهبه بالحجج الدامغة ، وكم من مناقشات حادة سجلت على صفحات الكتب ، ولو وصلنا الكثير من مؤلفات العصر العباسي لرأينا ان ما ليس بالقليل من الافكار التي نظنها من مستحدثات هذا العصر ، كانت مما هو معروف ومتداول عند اسلافنا ، ولكن اثمن ما في هذا الكنز حرق أو تلاشى وذهب ضحية للجهل وللضغائن الدينية ، نعم بين ايدينا كتب عديدة ذات قيمة كبيرة ، ولكنها ليست الا كقبس من نار ، لو قيست بما ضاع لما جاوزت نسبتها الواحد في العشرة من دون مبالغة ، ولا يخفى **ان** هذه الكتب ما طرقت موضوعاً الا واوفته حقه من البحث ، وما وقفت على مشكلة الا وقلبتها على جميع وجوهها ، فلا تتركها حتى تأتي بالقول الفصل فيها ، كل ذلك واللغة تطاوع الكتاب مطاوعة الذهب المذاب للصائغ الماهر ، فلا يجدون أدنى صعوبة في التعبير عن أشد المعاني غموضا ، وفي الافصاح عما يجول في خواطرهم من اكثر الاحساسات لطفاً ودقة .

فاذا قرأ الانسان هذه الكتب استولت على لبه ، وسحرته ببيانها ، وصار اسيراً لها ، فاذا حمل مؤلفها على امر أو استنكر رأياً وجدت نفسك ـ بالرغم عنك ـ حاملا عليه ، مستنكراً له ، واذا استحسن شيئاً ملت الى

جانبه ، وارتأيت رأيه ، ولو شاء لأراك الابيض اسود ، والأسود ابيض ، والنور ظلاما ، والظلام نورا ، وهذا غاية ما يمكن للغة ان تصل من الارتقاء والسمو ، وأعلى درجة تصعد اليها البلاغة ، ولا أقول هذا متأثراً بحبي واخلاصي لكل ما يتعلق بالعرب أو العربية ، بل جاعلا الحق رائدي ، والحقيقة غايتي ، وتحبيب لغتي الى اخواني اقصى مرادي .

ولكن ربما قابل بعض المفتونين كلامي بابتسامة خبيثة تنم عما يكنه من الازدراء وربما اردفها بتانيب واستنكر قائلا : « لا يستحيل ان يكون بعض ما ادعيته صدقا ، غير أني... أريد ان انبهك على أن كل ما ذكرت انما يتعلق بالماضي البعيد ، بالقرون الاولى ، ولا يخفاك ان العالم منذ هذا التاريخ قد تغير تغيراً كبيراً بحيث صار ما كان يعد سابقاً من المعجزات ، لايساوي اليوم شروى نقير ، وانظر الى العلوم والفنون الحديثة : أتظن أن اللغة العربية قادرة على امدادنا باسماء جديدة لمعانيها» بلى ! بلى ! ايها الناكر للجميل ، ان لغتنا أوسع مما تظن ، وهي صالحة لكل زمان ، وقابلة للتطور حسب ما تقتضيه الاحوال ، وان اردت الدليل القاطع ، والحجة الدامغة ، فتأمل حالة مصر المحروسة ، تر ان ابناءها النجباء ما تركوا علماً حديثاً الا وتعلموه ، وما ظهر فن جديد الا واتقنوه ، وما كانت اللغة لتعوقهم عن التحصيل ، ولا لتحبط أعمالهم ، بل وجدوا فيها اعظم مساعد ومشجع على الاسترسال ، اذ يسهل فيها ايجاد الفاظ جديدة من اخرى قديمة ، ولا اظنني اخبر القاريء بشيء جديد حين اعلمه ان الطب - وما أكثر احتياجه الى تعبيرات علمية دقيقة ! - يدرس - في مصر طبعاً - بلغة الضاد على احدث طرق التعليم ، ويمكنك ان تقول مثل ذلك في كل العلوم .

والصحافة آية هذا الزمن قد بلغت في مصر مستوى راقياً تحسد عليه من كثير من الدول ، والصحفيون المصريون لا يقلون عن اخوانهم في الغرب براعة واتقانا لمهنتهم ، والكتاب والادباء قد درسوا القديم دراسة جيدة ، واقتبسوا من الحديث ما رأوه ذا فائدة ونفع لادبنا العربي فجاءت كتاباتهم جامعة في آن واحد لفخامة الاول وطلاوته ووضوح الثاني وجلائه ، وصدرت مؤلفات نفيسة كان لها دوي كبير في العالم العربي ونبه اشخاص وصارت لهم مكانة وصيت في البلاد العربية بل في البلاد الغربية نفسها فما امثال طه حسين والزيات وزكي مبارك وغيرهم ممن يجهلون ، وما شوقي في رواياته (مجنون ليلى) أو (كليوباطره) أو (عنترة) باقل قيمة من أي قطب من أقطاب التاليف المسرحي العالميين ولا توفيق الحكيم في (أهل الكهف) أو (شهرزاد) بأحط شأناً من اشهر مشاهير الفن ، هذه حال مصر الادبية وهؤلاء ابناؤها جزاهم الله عن العربية خيرا ، يجاهدون جهاد الجبابرة لاعادة لغتنا الى سابق مجدها ، واحلالها المحل اللائق بها بين لغات العالم ، وهذا يدخل على قلبي سروراً لا يوصف ولكنه يدفعني - رغم ارادتي - الى التساءل عن مبلغ ما فعله مواطني الكرام في هذا الميدان ، فما ذا يا ترى انتجته قرائح ابناء المغرب في امداد هذه النهضة الادبية بالتاليف والملاحظات والنصائح؟ علم الله ان منتوجنا يساوي - بعبارة حسابية - صفراً أو ما يقرب من الصفر ، فسوق الادب بيننا كاسد ومنبعه ناضب .

بعض الادباء يحجم عن الكتابة لانه يخاف النقد وينقيه وبعضهم يتبرم بالنقد ويستنكره ولا يريد أن يسمع الا تسبيحاً بحمده وذكراً لخصاله وفضائله بكرة وأصيلا — وبين هؤلاء وأولئك شبان حيارى لا يدرون

من امر لغتهم شيئا ، ولا يفقهون للادب معنى ، اذا دفع احدهم اقدامه الى مطالعة احد الكتب المغربية المؤلفة في هذه السنين الاخيرة ، رجع عنه منهزماً اذ يصطدم باسلوب لا يتّ بصلة الى الاسلوب العربي ، وهو اقرب الى الرموز والالغاز منه الى كتابة يراد منها افادة القارئ قبل كل شيء ، وبعد اللتي واللتيا وبعد نصف ساعة بحث في معاجم اللغة يتوصل الطالب المسكين الى استخراج مكنون جملة فاذا به معنى متداول رذيل لا يستحق كل هذا التعب ، وانتم تعلمون ما ذا يفعله طالبنا حينذاك ، انه يلقي الكتاب بعيداً ويهجر العربية الى الابدمقتنعاً وجازماً بانها لغة جامدة .

ولا أدري ما الذي كان يجب الى مؤلفينا هذا الغموض ؟ ! الغالب انهم لم يكونوا يفضلونه على الجلاء والوضوح وانما كانوا يضطرون اليه اضطرارا ، فانهم (رضي الله عنهم) لما صمموا على عدم الاعتراف بالنهضة الحديثة ، والاقرار بفضل الاسلوب العصري ، نشأ عن ذلك ان تركوا المطالعة والتنقيب فعقم فكرهم ، فلا ياتيهم المعنى المطلوب الا بعد الجهد الجهيد ، ففكروا في وسيلة تنقذهم من هذا المأزق فاهتدوا الى حيلة لله ما الطفها ! قالوا : المعاجم اللغوية من أبخس الكتب ثمنا ، فلما ذا لا نشتريها ونتمتع بخيراتها الكثيرة ؟ وفعلا اتموا مشروعهم فصاروا لا يكتبون شيئاًالا بعد ان يبحثوا له عن الفاظ غريبة وحشية يلصقون الواحدة بأختها ، الى ان يسوّدوا صفحات الكتاب — فاذا فهمت هذه الالغاز وكشفت عن معنى هذه الاحاجي ، كنت فارس البلاغة وأمير البيان ، ومستحقاً لكل تبجيل واحترام والا... فما انت اذاً الا قارئ جرائد غريب عن العربية يجدر بك ان تترك الصناعة لاربابها ، وتسلم الزمام للسادات حماتها ، هذه حقائق لا غبار عليها — ولو لم تحظ بالقبول عند بعض الجامدين الذين يتربعون على عروش اقاموها بالتدجيل والتهويش والتهويل والضحك على عقول البسطاء من الشبان الذين صاروا آلة في ايديهم يديرونها كيف شاءوا ويحاربون بها كل اثر للتجديد الادبي ، يريدون ان يطفئوا نور الله والله متم نوره ولو كره الجامدون !

ولنترك الآن هؤلاء الملوك غير المتوجين يستمتعون - ولو الى حين - بعظمتهم و«فخفختهم» فما حديثهم مما يسر القلب ويشرح الصدر ويحيي الامل .

ولننظر في حالة شبان اليوم - رجال الغد - المخلصين لبلادهم ، ولنرج منهم ان يقدموا على الكتابة وابداء افكارهم ، فان في ذلك ايقاظاً للغافلين وتشجيعاً للمتكاسلين ، ولا يصدنهم عن النهوض شيء ، فان كانت غلطاتنا اليوم كثيرة ، ومعارفنا قليلة ومحدودة ، والوسائل معدومة ، فان المستقبل كفيل بتقويم المعوجّ ، واصلاح الفاسد ، وبالسماح بتاسيس ما نحتاج اليه ، شيء قليل من الارادة القوية والشجاعة الادبية يكفينا — ايها الاخوان — لناتي بمنتوج لا بأس به ، واذا علمنا ان العلم انما يكون بالتعلم لم نيأس من انفسنا ولم نقنط من ترقية مستوانا الادبي ، ان اصعب الاشياء أوائلها ، فاذا جاوزنا العقبة الاولى ، انفتحت امامنا آفاق جديدة لم تكن تخطر لنا على بال ، ولم نك نحس من انفسنا استعداداً لخوض مجالها ، فليشجع بعضنا البعض وليشد كل منا أزر الآخر ان ضنَّ علينا اهل المكانة بالتشجيع والمؤازرة ، ولنسر بخطى ثابتة طالبين من الله سبحانه تحقيق الآمال والتوفيق الى صالح الاعمال .

محمد ملين